العدّوان محمد بن سلمان وجو بايدن يتحولان إلى صديقين

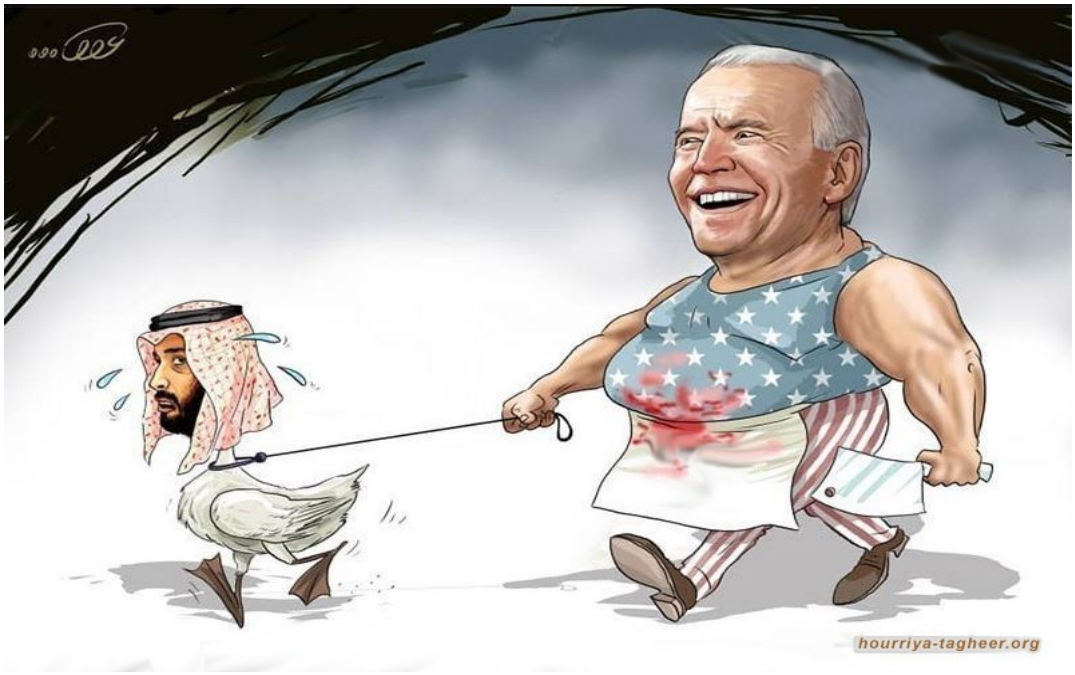

اعتبرت صحيفة فايننشال تايمز البريطانية أن من وصفتهما " العدّوان السابقان" محمد بن سلمان والرئيس الأمريكي جو بايدن يتحولان حاليا إلى صديقين.

وأشارت الصحيفة إلى تحذير بأنه "ستكون هناك عواقب" كان وجهه بايدن بايدن الغاضب إلى السعودية خلال مقابلة مع شبكة سي إن إن في خريف عام 2022، بعد أسبوع من إعلان المملكة عن تخفيضات كبيرة في إنتاجها النفطي.

وبحسب الصحيفة كان الرئيس الاميركي يخشى من أن تؤدي هذه الخطوة إلى رفع أسعار النفط الخام وسط الاضطرابات الناجمة عن الحرب الروسية في أوكرانيا، واعتبره المسؤولون الأميركيون، الذين فاجأهم القرار السعودي، صفعة على وجه الإدارة التي شعرت بالقلق إزاء أسعار البنزين المحلية في الفترة التي سبقت الانتخابات النصفية.

بالنسبة لبايدن كان الأمر شخصيًا، فقد جاء خفض الإنتاج الذي أعلنته أوبك بلس منظمة النفط التي

تقودها السعودية، بعد ثلاثة أشهر فقط من المغامرة برصيده السياسي من خلال السفر إلى المملكة لإجراء محادثات مع الأمير محمد بن سلمان، الذي رفض الرئيس في السابق التعامل معه.

خلف الكواليس، تبادل المسؤولون من البلدين الكلمات القاسية، وأعتقد البعض في الإدارة أن السعوديين، الذين أصروا على أن قرارهم استند إلى ديناميكيات السوق، قد أفسدوا الأمر عمداً.

لقد أصبحت هذه لحظة فاصلة بعد أشهر من الجهود لإصلاح العلاقات بين البلدين ولوح بايدن بإجراء "مراجعة" أخرى للعلاقة.

لكن "العواقب" التي هدد بها بايدن لم تتحقق أبداً، وما كان يمكن أن يكون قطيعة أصبح مجرد انتكاسة في محاولات كلا الجانبين لإعادة بناء العلاقة الثنائية، وقد ازدهرت العلاقات بين الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية في الأشهر التي تلت ذلك مع تحول المملكة من دولة منبوذة إلى ما يصفه مسؤولو الإدارة أحد أهم شركاء واشنطن العالميين.

مثل هذا التقارب – على الرغم من أنه مستحيل مع استمرار حرب إسرائيل على غزة– من شأنه أن يمنح بايدن إنجازاً مميزاً في السياسة الخارجية والأمير محمد اتفاق الدفاع الأمريكي السعودي الذي طال انتظاره.

يعتقد المسؤولون الأمريكيون أن هذا قد يكون جزءا أساسيا من حل مستدام للأزمة في غزة ويقول مسؤول كبير في إدارة بايدن: "الشيء الوحيد المؤكد الذي سيبقي الطريق إلى [حل الدولتين] حياً هو تأثير المملكة العربية السعودية" مضيفاً "إنه الشيء الوحيد الذي يحرك الإسرائيليين حقاً".

يعد التحول الدراماتيكي في اللهجة انعكاساً لكيفية تحرك سياسة بايدن الخارجية من خلال الأحداث وليس الأيديولوجية، تماماً كما كانت سياسة باراك أوباما من قبله.

وقالت الصحيفة إن الشرق الأوسط المضطرب يجذب رؤساء الولايات المتحدة على الدوام، حتى وهم يسعون إلى الابتعاد عن المنطقة، وهو العامل الذي أصبح موضع تركيز أكبر بعد هجوم حماس في السابع من أكتوبر/تشرين الأول، والذي أشعل فتيل حرب الحركة مع إسرائيل.

كما أنه يؤكد على أهمية الطاقة القادمة من الخليج بالنسبة للسياسة الداخلية الأمريكية وبالرغم من

أن الولايات المتحدة خفضت اعتمادها على واردات النفط، فإن ما يحدث في الشرق الأوسط لا يزال يؤثر على الأسعار العالمية.

ولكن في جوهر هذا التغيير كان هناك إدراك سياسي واقعي في واشنطن مفاده أن السعودية كانت مهمة للغاية في لعبة المنافسة بين القوى العظمى، بحيث لا يمكن تجاهلها، بالرغم من وجود مخاوف من أنه إذا لم تتعامل الإدارة مع الرياض، فإن الحليف التقليدي للولايات المتحدة سوف يذهب وبشكل اعمق نحو مداري الصين وروسيا.

يقول جون ألترمان من مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية: "كيف تمنعون روسيا من التحالف مع السعودية؟ يجب أن تكون لديك علاقة [مع السعوديين]؛ كيف تمنعون الصين من التحالف مع السعودية؟ .. يجب أن يكون هناك علاقة معها".

وأضاف "جزء من الحجة المطروحة، [من أجل التقارب]، هو أنهم لا يستطيعون التخلي عن الشرق الأوسط للصين، وقد ذكّر السعوديون الإدارة بالخيار الصيني في كل فرصة أتيحت لهم".

لقد مرت العلاقات الأمريكية السعودية بأعلى مستوياتها وأدنى مستوياتها على مر العقود، لكنها تحسنت بشكل ملحوظ بعد أن خلف الرئيس دونالد ترامب أوباما واتبع علاقة قائمة على المصلحة المادية البحتة مع الرياض.

وقام الرئيس الجمهوري بأول رحلة خارجية له إلى المملكة ووقع صفقات أسلحة بمليارات الدولارات وقال ترامب في عام 2018، بعد أسابيع فقط من القتل الوحشي للصحفي السعودي المقيم في الولايات المتحدة جمال خاشقجي في تركيا على يد عملاء سعوديين: "لقد كانوا حليفًا عظيمًا في معركتنا المهمة جدًا ضد إيران".

لكن بايدن انقلب على الرياض 180 درجة وتعهد خلال حملته الانتخابية بإعادة تقييم العلاقات مع أكبر دولة مصدرة للنفط في العالم، ووعد بجعل الرياض "تدفع ثمن" مقتل خاشقجي، كما اتهم بايدن المملكة بـ"قتل الأطفال" في إشارة واضحة إلى حرب السعودية في اليمن.

وبمجرد وصوله إلى منصبه، بدأ في تنفيذ تهديداته، وبعد أسبوع من تنصيبه، علق مبيعات الأسلحة الهجومية للمملكة، وبعد شهر، سمح بإصدار تقرير استخباري سري خلص إلى أن الأمير محمد، الزعيم

الفعلي للمملكة، وافق على مهمة "القبض على خاشقجي أو قتله". (ألقت الرياض باللوم في جريمة القتل على "عملية مارقة").

ولكن ظلت خطوط الاتصالات مفتوحة في الكواليس، وقام بريت ماكغورك، كبير مستشاري البيت الأبيض لشؤون الشرق الأوسط والمخضرم في الإدارات السابقة، برحلة مبكرة إلى المملكة في محاولة لطمأنة السعوديين بهدوء بأن الأمور ستتحسن بعد بضعة أشهر.

كما اتخذت الرياض خطوات اعتبرتها واشنطن بمثابة مبادرات نحو التقارب مع الرئيس الجديد، فقبل وقت قصير من تنصيب بايدن، رفعت السعودية الحظر الإقليمي الذي فرضته على قطر لأكثر من ثلاث سنوات، وهي حليف رئيسي آخر للولايات المتحدة.

مما ساعد على تعزيز تحول المزاج على مستوى المنطقة نحو وقف التصعيد بين القوى المتنافسة في الشرق الأوسط واطلقت الرياض في فبراير/شباط 2021 الناشطة السعودية البارزة لجين الهذلول.

لكن العلاقات كانت لا تزال متوترة عندما أرسل بايدن مستشاره للأمن القومي جيك سوليفان إلى المملكة في سبتمبر من ذلك العام، وناقش المسؤولون الأمريكيون مبدئيًا إمكانية عقد اجتماع بين بايدن والأمير محمد في اجتماع مجموعة العشرين في روما في الشهر التالي، لكن هذه الخطط أبطلت عندما اختار ولي العهد عدم حضور القمة شخصيًا.

وفي النهاية كان فلاديمير بوتين هو الذي حقق نقطة التحول الرئيسية فقد ادى الغزو الروسي لأوكرانيا في فبراير/شباط 2022 إلى ارتفاع أسعار الطاقة إلى أعلى مستوياتها منذ سنوات.

وخشي المسؤولون الأمريكيون من أن الرياض، التي كانت تتعاون مع موسكو في إنتاج النفط منذ عام 2016، قد تقف إلى جانب الرئيس الروسي.

يقول كريم سجاد بور، زميل بارز في مؤسسة كارنيجي: "إن المنافسة بين القوى العظمى مع الصين والغزو الروسي لأوكرانيا غيرت بشكل مفهوم وجهة نظر إدارة بايدن تجاه المملكة من شريك مثير للمشاكل إلى دولة متأرجحة مرغوبة".

ولا يزال الكثيرون في الإدارة، بما في ذلك وزارة الخارجية، يعارضون تكثيف التعامل مع الأمير محمد

لكن أولئك الذين زعموا أن البراغماتية تفوقت على الغضب الأخلاقي فازوا باليوم.

أرسل بايدن ماكغورك وعاموس هوشستين، كبير مستشاري الطاقة في البيت الأبيض وأحد الشخصيات الإدارية القليلة التي لديها خلفية في صناعة النفط والغاز، إلى المملكة في يناير/كانون الثاني 2022، قبل أسابيع من دخول الدبابات الروسية إلى أوكرانيا وقام الرجلان بزيارات متكررة للمملكة منذ ذلك الحين.

ومع تحسن العلاقات مؤقتًا، طرحت إدارة بايدن فكرة التوصل إلى اتفاق كبير للسعودية لتطبيع العلاقات مع إسرائيل، وكانت الجزرة بالنسبة للرياض والتي أزعجتها منذ فترة طويلة ما تعتبره عدم القدرة على التنبؤ بالولايات المتحدة والافتقار إلى التزام أميركي واضح بأمن الخليج عبر معاهدة دفاعية مماثلة لتلك التي تتقاسمها الولايات المتحدة مع اليابان، والتعاون مع برنامجها النووي المدني الناشئ.

وبدأت المناقشات أيضًا بشأن رحلة محتملة لبايدن إلى المملكة، على الرغم من الذعر المستمر عبر قطاعات الإدارة تجاه مثل هذه الخطوة.

وقد ساعدت قضية مؤيدي التواصل من خلال موافقة الرياض في أبريل 2022 على هدنة توسطت فيها الأمم المتحدة مع المتمردين الحوثيين المدعومين من إيران الذين كانوا يقاتلونهم في اليمن.

في نهاية المطاف تمت رحلة بايدن إلى جدة في يوليو، بعد أسابيع من موافقة أوبك بلس على زيادة متواضعة في إنتاج النفط الخام، وهو أمر دفعت واشنطن من أجله على أمل احتواء أسعار النفط.

وبدت مشاهد الاجتماع في الميناء السعودي فاترة، مع تحية محرجة بين الرئيس المسن والأمير، لكن المسؤولين الأميركيين يصرون على أن الأمر سار على ما يرام، مما أدى إلى تطهير الأجواء من الخلافات ووضع الأسس لمجالات التعاون.

يقول الترمان "كان الهدف من زيارة جدة هو كسر الجليد والسماح للفريقين بالعمل وبمجرد أن بدأوا الحديث، كان هناك شعور بالأمل تجاه احتمالات متعددة".

ولكن بعد ذلك اندلعت الضجة بشأن قرار أوبك بلس في أكتوبر بخفض الإنتاج قبل الانتخابات النصفية في نوفمبر، مما دفع بعض أعضاء الإدارة الغاضبين إلى الشك في أن عناصر داخل السعودية تريد خسارة

الديمقراطيين في صناديق الاقتراع.

كان هناك اتصال ضئيل بين الطرفين لأشهر عدة، وتعاملت الرياض ببرود مع واشنطن واستضافت الرئيس الصيني شي جين بينغ في قمة في ديسمبر/كانون الأول، مما اكد علاقاتها المزدهرة مع الدولة التي أصبحت على مدى العقدين الماضيين أكبر مشتر للنفط في المملكة وأكبر شريك تجاري لها.

أدى برود الغضب وبقاء أسعار النفط مستقرة نسبيا، إلى تبرئة السعوديين وإقناع المسؤولين الأميركيين بأن قرار التخفيض كان يستند إلى ديناميكيات السوق وليس السياسة، ليعاد فتح قنوات الاتصال في نهاية المطاف.

يقول المسؤول الكبير في الإدارة: "لقد كانت لحظة متوترة، مع اقتراب موعد الانتخابات" مضيفًا "أعتقد أنه من العدل أن نقول إنه كان هناك سوء فهم لما كان (السعوديون) يحاولون القيام به".

والآن، كما يقول مسؤول سعودي، أصبحت العلاقة "أفضل مائة مرة مما كانت عليه عندما جاءت هذه الإدارة".

والنقطة التي يشير إليها المسؤولون الأميركيون هي أن العلاقة اليوم لا تقتصر على النفط فحسب فقد أدركت إدارة بايدن أنه بالإضافة إلى منع السعودية من الانزلاق أكثر في فلك الصين، فإنها بحاجة إلى تعاون الرياض لتحقيق أهداف أخرى، مثل إنهاء الحرب في اليمن وتهدئة التوترات مع إيران.

كما أثرت الدولارات النفطية على المواقف فقد استثمر صندوق الاستثمارات العامة السعودي أكثر من 100 مليار دولار في الولايات المتحدة بين عامي 2017 و2023.

يقول مسؤول أمريكي كبير آخر: "الأساسيات لا تقتصر على العلاقة الدفاعية التاريخية فحسب.. السعودية هي إحدى دول مجموعة العشرين التي تريد العمل معنا بشأن مجموعة كبيرة من القضايا".

لقد قام السعوديون، مثل غيرهم في الخليج، بالتحوط من خلال نسج علاقاتهم مع مجموعة من الدول على مدى العقد الماضي، حيث كان يُنظر إلى الولايات المتحدة على أنها تنسحب من المنطقة ولكن هناك إقرار بأنه لا الصين ولا روسيا قادرتان على تكرار الدور الأمني أو الدبلوماسي الذي تلعبه الولايات المتحدة في المنطقة.

يقول علي الشهابي، وهو معلق سعودي مقرب من الديوان الملكي: "لقد أدرك السعوديون دائمًا أهمية الولايات المتحدة" مضيفا "لكن المشكلة هي أن الولايات المتحدة لم تكن موثوقة وأن المملكة أصبحت بيدقًا في السياسة الداخلية الأمريكية".

بالنسبة لكل من الولايات المتحدة والسعودية، سيكون الإنجاز الأهم لهذه العلاقة المنشطة هو اتفاق التطبيع مع إسرائيل الذي يعمل الجانبان من أجله، ففي مقابل اتفاقية الدفاع الأمريكية والتعاون النووي، ستقيم المملكة علاقات دبلوماسية رسمية مع إسرائيل وسيكون على الإسرائيليين أن يعرضوا التقدم نحو إقامة دولة فلسطينية مستقلة.

ومع ذلك، هددت الحرب في غزة بإفشال المحادثات.

قبل هجوم حماس في السابع من تشرين الأو/لأكتوبر، كان من المقرر أن يسافر وزير الخارجية الأمريكي أنتوني بلينكن إلى المملكة لمناقشة العنصر الفلسطيني في الصفقة، لكن عندما التقى بلينكن بالأمير محمد في الرياض يوم 14 أكتوبر/تشرين الأول، كانت الحرب هي المهيمنة على محادثاتهما.

وبعد أيام، أجرى بايدن أول مكالمة هاتفية له مع ولي العهد، أكد خلالها الزعيمان "أهمية العمل من أجل تحقيق سلام مستدام بين الإسرائيليين والفلسطينيين بمجرد أن تنحسر الأزمة"، بحسب ما جاء في بيان البيت الأبيض واتفقا أيضًا على البناء على "العمل الجاري بالفعل" بين السعودية والولايات المتحدة.

وكانت تلك إشارة إلى إبقاء محادثات التطبيع مطروحة على الطاولة.

وأوضح المسؤولون السعوديون في أحاديث خاصة أنهم ما زالوا منفتحين على التوصل إلى اتفاق، كما يقرون ان هجوم حماس والهجوم الانتقامي الإسرائيلي في غزة قد غيرا الديناميكيات بشكل كبير.

لقد كانت الرياض غاضبة من الدمار الذي أحدثه الهجوم الإسرائيلي على غزة على الرغم من أنها ليست من محبي الجماعة الإسلامية المتشددة، وقد أدركت أيضًا أنه لكي يكون أي اتفاق قابلاً للتطبيق سياسيًا، فإنه سيحتاج إلى تنازلات إسرائيلية أكبر بكثير مما تصورته سابقًا بشأن التحرك نحو إقامة دولة فلسطينية.

لقد قام كل من سوليفان وبلينكن وماكغورك وهوشتاين برحلات متعددة إلى المملكة في الأشهر التي تلت

ذلك، لمناقشة الأزمة الإقليمية والعناصر الأمريكية السعودية في الصفقة، لكن رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو يرفض أي تحرك نحو إقامة دولة فلسطينية.

وحتى في حالة عدم التوصل إلى اتفاق، فإن المسؤولين السعوديين والأمريكيين مقتنعون بأن العلاقة المعاد تنشيطها يمكن أن تستمر.

وقد عززت الأزمة الإقليمية قيمة الشراكة بالنسبة لكليهما؛ أبلغت الولايات المتحدة المملكة بأنها مستعدة لاستئناف مبيعات الأسلحة، بينما سمحت المملكة للولايات المتحدة وحلفائها باستخدام مجالها الجوي للدفاع ضد الهجمات الصاروخية والطائرات بدون طيار التي شنتها إيران في أبريل.

يقول المسؤول الكبير الأول في الإدارة: "إن عملية العمل من خلال كل هذا مع السعودية قد أوضحت بشكل أكبر مصالحنا المشتركة في المنطقة على نطاق واسع" مضيفًا "أعتقد أن التقدم الذي أحرزناه من المرجح أن يستمر".

ومع ذلك، وعلى الرغم من كل الود الواضح، فإن مدى إعادة تأهيل الأمير محمد في واشنطن لا يزال مفتوحًا للنقاش، كما تظل الصين شريكًا رئيسيًا للسعودية، ولم يتخلى الأمير محمد عن بوتين، في سعيه لتحقيق التوازن في العلاقات بين الغرب والشرق ولا يزال هناك في الولايات المتحدة من يعارضون توثيق العلاقات بين الولايات المتحدة والمملكة.

ويقول ألترمان إن الانعزاليين في واشنطن "يجادلون بأن السعودية قوة متضائلة، وأن الرهان على النفط أمر جنون، ويجب علينا التخلص منهم، وليس تقريبهم" لكن هناك أيضًا "يساريون يقولون إن هذا نظام قمعي لا ينبغي لنا أن نفعل شيئًا به".

لكن المسؤولين الأمريكيين يعتقدون أن الرياض أصبحت أكثر انسجاما مع الولايات المتحدة، خاصة فيما يتعلق بالحرب في أوكرانيا.

ويقول دينيس روس، المفاوض السابق في شؤون الشرق الأوسط والذي يعمل الآن في معهد واشنطن لدراسات الشرق الادنى: "لا يعني ذلك أنهم يبتعدون عن علاقتهم مع الصين، لكن من الواضح أنهم يؤكدون بشكل متزايد على العلاقة معنا".